٢ـ أخـــلاق القرآن

العـــدل

للدكتور عبد الوهاب عزام

بينت قبلاً أن القرآن يريد بتعليمه الأخلاق تحرير الإنسان من أهوائه وشهواته ، وتزويد عقله بالمعرفة ، ودفعه إلى العمل فى معترك الحياة لخيره وخير الناس ؛ ووعدت أن أتحدث عن أمهات الأخلاق فى القرآن ، فاليوم أبدأ الحديث بالعدل :

العدل القرآنى هو العدل المطلق الشامل الذى لا يختلف بين زمان وزمان ، ومكان ومكان ، وأمة وأمة ؛ والذى تستوى فيه نفس الإنسان وغيره ، ويستوى فيه القريب والبعيد ، والصديق والعدو ، ويستوى فيه الرضا والغضب ، والحب والبغض ، والنفع والضرر . هو أن يعطى الإنسان كل ذى حق حقه فى كل حين وفى كل أرض ، وعلى كل حال . يقضى على نفسه بالحق ويقضى لغيره بالحق ، ويعطى من يكره بالحق ، ويحرم من يحب بالحق ، ويعمل العمل فيه ضره إيثاراً للعدل ، ويكف عن العمل فيه نفعه إيثاراً للعدل . هو أن يعترف بإحسان غيره ولا يبخس الناس أشياءهم ، ويعترف بإساءته ، ولا يحب أن يحمد بما لم يفعل وأن ينقاد لرأى غيره حين يتبين له أنه الحق ، ويسرع الرجوع عن رأيه حين يعرف فيه الباطل

العدل القرآنى أن يصرّف الإنسان أمور نفسه وأمور الناس على قانون لا عوج فيه ولا زيغ ولا استثناء ولا ظلم ولا محاباة ، أن يسّير أعماله على قانون إلهى لا تبديل فيه ولا تحويل ، كالقوانين التى تسّير : الشمس والقمر والنجوم والرياح ، وتصرّف العالم كله كما يشاء الله

يقول القرآن الكريم : « والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام » ، أليس فى هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن العدل الذى يأمر الله به هو قانون من قوانين الله بثّه فى خليقته . فهو قد رفع السماء ووضع الميزان فى خليقته ، كل شىء مقدّر بقدره ، وكل شىء محدود بحدوده ، كما قال فى آية أخرى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » . وكذلك أمر الله الناس أن تكون أعمالهم فى هذه الأرض على هذه الشاكلة لتستقيم أمورهم وتعتدل معايشهم ، فليس عدل الله أمراً يسيراً تتصرف فيه الأهواء ، وتتلاعب به الشهوات والعصبيات . ليس عدل الله أمراً مما يباع بالبسير من متاع الحياة الدنيا ، ويهجر للحقير من أهواء النفوس ، ولكنه نظام فى العالم وفى الاجتماع البشرى لا يستقيم شىء فيهما بدونه كما جاء فى الحديث الشريف : بالعدل قامت السموات والأرض .

وآية أخرى من القرآن تجعل العدل أول صفات الله التى يقوم بها على خلقه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فقد شهد الله وشهد أولو العلم من عباده أنه تفرد بالألوهية قائماً بالعدل فى خلقه

وآية أخرى تبين أن الله أوحى للناس علمه وشرائعه مع العدل ، ليقوموا بالعدل فى معايشهم وهو الغاية التى من أجلها أنزلت الشرائع . استمع هذه الآية الكريمة :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان . ليقوم الناس بالقسط »

وأخرى من الآيات تبين أن أوامر الله وأحكامه قائمة بالصدق والعدل لا تتحول عنهما : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته »

يبيّن القرآن أن الله جعل العدل نظاماً للعالم ، وقياماً للخلق ، وأمر به فى كثير من آياته ، وحث المؤمنين على أن يكون ديدنهم القيام بالعدل بين الناس ، والشهادة لله على الناس بالعدل ، وأن ينزهوا العدل عن الهوى فلا يميلهم عنه حب ولا كره . قال فى سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . » وقال فى سورة المائدة :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى

واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

أمر فى الآية الأولى أن يقوموا بالعدل ويشهدوا به لله . ولا يميلوا عنه لمحبة النفس أو الوالدين أو الأقربين . وأمر فى الآية الأخرى ألا يميلوا عن العدل مع من يبغضونهم فقال « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » يعنى لا يحملكم بغض قوم على أن تعاملوهم بغير العدل

وقال فى سورة الأنعام :

«وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »

والآيات التى تأمر بالعدل كثيرة حسبنا منها الآية الجامعة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »

ويشتد القرآن فى النهى عن الظلم كما يشتد فى الأمر بالعدل ويبين عاقبة الظلم فى الأمم بأساليب شتى ؛ والظلم فى لغة القرآن وضع الأمر فى غير موضعه أو الخروج عن الحق . فالمجرم ظالم ، والكافر ظالم ، والمشرك ظالم ، والكاذب ظالم . يقول : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته » . ويقول : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » . ويحكى القرآن عن آدم وحواء حين تابا : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . وما هذا الظلم إلا مخالفتهما ما أمرا به

وعاقبة الظلم هلاك ودمار للفرد والجماعة والأمة . قلّ أن يذكر القرآن هلاك أمة أو بلد إلا بيّن أنها أهلكت بظلمها . يقول فى سورة الأنبياء : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » . وفى سورة الحج : « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » . « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير » . وفى سورة هود : « تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »

هذا العدل المطلق الذى بينه القرآن وأمر به يقتضى الجزاء الحتم . فكل إنسان مجزىّ بعمله خيراً أو شراً . العدل يقتضى أن يميّز الخير من الشر والمحسن من المسىء . يقول القرآن : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة[1] » ويقول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون[2] » « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون[3] » بل يقرن القرآن الجزاء بخلق السموات والأرض « وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[4] »

فالجزاء حتم على كل صغيرة وكبيرة وليس للانسان إلا عمله، ليس فى الناس مقربون إلى الله ولا مبعدون عنه إلا بالعمل

يقول : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى[5] » ويقول فى الرد على من زعموا أن لهم مكانة عند الله تخرجهم من هذا القانون العام قانون الجزاء : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ؛ من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً[6] » . «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[7] »

ومن هذا العدل المطلق والجزاء الحتم أباح القرآن أن يقابل الشر بمثله من غير بغى . قال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » ويقول : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله » وفى سورة الشورى يوضح هذا أتم إيضاح . يقول فى مدح المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك

(١) سورة فصلت (٢) نون (٣) الجاثية (٤) الجاثية
(٥) النجم (٦) النساء (٧) الزلزال

لهم عذاب أليم » . فمن حق الإنسان أن يردّ البغى عن نفسه فى غير عدوان ، وأن يلقى السيئة بمثلها وينتصر ممن ظلمه ، وله أن يعفو ويصفح إن رأى فى العفو خيراً .

* * *

ذلكم العدل الذى بثه الله فى خليقته ، وأمر به عباده ، وجعل فيه صلاحهم ، وفى تركه دمارهم . فمن شاء الخير لنفسه وللناس فليلزم العدل فى كل صغيرة وكبيرة ، وليكن كما أمر القرآن قائماً بالقسط شهيداً لله

إن الأمم تتهافت فى النار ، وتعود على ما شيّدت بالخراب والدمار ، بما فقدت العدل وكفرت به ، واتخذت لأنفسها شريعة من الباطل والزور والبغى . يريد المغترون بقواهم أن يسيطروا على الأرض بالباطل ، زاعمين أنهم يسيطرون عليها بالحق ، لا يرون لغيرهم حقاً ، ولا لأطماعهم حداً ، ولو أنصف الناس فقاموا فى خلق الله بالقسط ، وجعلوا الحق شريعة بين الناس ، ونبذوا العصبية للباطل ، ورفعوا عن أعينهم غشاوة الهوى ما سُخرت عقولهم وعلومهم وصناعاتهم للإهلاك والتدمير ، ولما قذفوا بأنفسهم فى جهنم وهم يستطيعون أن يعيشوا فى جنة على هذه الأرض

داء الأمم للظلم ودواؤها العدل — العدل الشامل المطلق الذى لا يختلف باختلاف الأزمان والأوطان والشعوب والأديان . إنما يأخذ الله الأمم بجرائرها عسى أن تثوب إلى رشدها وتتبين الطريقة المثلى التى حادت عنها ، وإن فى ذلك لعبرة

ويقول القرآن الكريم :

« ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » ... صدق الله العظيم

عبد الوهاب عزام